بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفرقان

وهي سورة مكية، تهتم: بإثبات التوحيد، والنبوة، والبعث، وتختم بذكر صفات عباد الله المتقين.

وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾

تبارك الله، أي: تزايد خيره وتكاثر، وتزايد وتعالىٰ عن كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، وهي كلمة تعظيم لم تستعمل إلَّا لله وحده.

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن الفارق بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ من إنس وجن، إلىٰ يوم القيامة ﴿نَذِيرًا﴾ يخوِّفهم من عذاب الله.

ثم وصف الله ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ وصف ذاته بأربع صفات من صفات الكبرياء، فقال جل جلاله:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾

أي: هو ﴿ٱلَّذِى﴾ له هذه الصفات:

الأولىٰ: ﴿لَهُۥ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الثانية: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ﴾ لنفسه ﴿وَلَدًا﴾ لعدم احتياجه إلىٰ ذلك، كما زعم اليهود والنصارىٰ.

الثالثة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما زعم المشركون.

الرابعة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وحده ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ بما يناسب الحكمة من خلقه.

هذا هو الإلٰه الواحد ـ تبارك وتعالىٰ ـ الذي ينبغي الإيمان به وحده، وأن تكون العبادة له وحده.

ولكن هناك فريق من الناس يقول عنهم ربنا سبحانه:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

يعني ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ لأنفسهم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: غيره، وهو الله ﴿ءَالِهَةً﴾ يعبدونها.

هذه الآلهة، التي اتخذوها لأنفسهم موصوفة بهذه الصفات:

الأولىٰ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ فهي عاجزة عن ذلك، والإلٰه يجب أن يكون قادرًا علىٰ الخلق والإيجاد.

الثانية: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ والمخلوق محتاج، والإلٰه يجب أن يكون غنيًا.

الثالثة: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف ينفعون غيرهم أو يضرُّونه؟

الرابعة: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ لغيرهم في زمن التكليف ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ في زمن الحساب والجزاء، والإلٰه يجب أن يملك هذا.

هذه هي آلهتهم العاجزة، فكيف يعبدونها من دون الله؟

وبعد أن تحدَّثت الآيات علىٰ وحدانية الله، وأبطلت صحة اتخاذ الكافرين من دون الله آلهة غير الله..!! يكون حديثها عن الشُّبَه التي أُثيرت عند إنكارهم نبوة محمد ﷺ.

يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾

وهذه هي **الشبهة الأولىٰ:**

قالوا علىٰ القرآن ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: اختلقه محمد ﷺ وألفه من نفسه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ من أهل الكتاب.

ويرد الله عليهم، وعلىٰ شبهتهم هذه بقوله ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ وقالوا ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾ لأنه تحدَّاهم فعجزوا.

ولو كان هو الذي أتىٰ به وألفه لفعلوا مثله وما عجزوا، فلما عجزوا: عُلم أن القرآن ليس من عند محمد، فلما أنكروا ذلك كانوا ظلمة كاذبين.

فلنستمع إلىٰ شبهة أخرىٰ:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾

وهذه هي **الشبهة الثانية:**

قالوا علىٰ القرآن إنه ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ وحكايات ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ التي سطروها واختلقوها ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ محمد منهم ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ ليحفظها ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: وقتًا بعد وقت.

ويردّ الله عليهم وعلىٰ شبهتهم هذه بقوله عز وجل:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: ليس القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

ولولا رحمة الله لعاجلكم علىٰ كلامكم هذا بالعذاب، حيث ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فأمهلكم حلمًا بكم؛ لتتوبوا، فتؤمنوا، فيغفر لكم.

ولنستمع إلىٰ **شبهة أخرىٰ**، ليست علىٰ القرآن، بل علىٰ محمد ﷺ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾

أي: أنه مع ظهور فساد اتخاذهم آلهة من دون الله، وبطلان أقوالهم علىٰ القرآن.. لم يؤمنوا، ولم يسكتوا.

بل قالوا علىٰ محمد ﷺ هذه الأشياء:

الأول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إن كان رسولًا كما يدعي ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كما نأكل نحن الطعام..؟

الثاني: مال هذا الرسول.. إن كان رسولًا كما يدعي ﴿يَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كما يمشى الناس في قضاء حوائجهم..؟

الثالث: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ من السماء ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ﴾ يصدقه، ويشهد له، ويكون ﴿نَذِيرًا﴾ مخوفًا لمن خالفه..!!

الرابع: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ من السماء، ينفق منه، ولا يحتاج إلىٰ الشيء في الأسواق..!!

الخامس: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: من ثمارها، في هذا البلد الذي لا ماء فيه ولا نبات، فيكون له ميزة علينا!!

السادس: إنه مسحور ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ !!

أي: لهذه الأشياء نحن لا نؤمن به، ولا نتبعه.

هذا.. وقد ردَّ الله عز وجل علىٰ شبههم بطرائق في الرد بديعة، وهي علىٰ النحو التالي إجمالًا: رد الله علىٰ الشبه الأربع الأخيرة بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الفرقان: ٩].

ورد علىٰ الشبهتين الأولين بقوله الآتي:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ورد أيضًا علىٰ الشبهتين الرابعة والخامسة بقوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ﴾ [الفرقان: ١٠].

حيث يقول ربنا ردًّا إجماليًّا علىٰ هذه الشبه:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾

أي: ﴿ٱنظُرْ﴾ إلىٰ عقولهم وتفكيرهم وتعجب ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ بما ذكروا ﴿فَضَلُّوا۟﴾ بذلك عن الهدىٰ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بهذا التفكير الوصول إلىٰ الصواب والحق ﴿سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً.

ثم يقول الله تعالىٰ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾﴾

يعني: ﴿تَبَارَكَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى﴾ عاندوا وكفروا به، وهو ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي قالوه من أن يلقىٰ إليك كنز، أو تكون له جنة تأكل منها ﴿جَنَّٰتٍ﴾ متعددة، وليست واحدة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في هذا البلد الصخري مكة ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ فيها الخدم والحشم، وكل ما يخطر وما لا يخطر ببالك.

ولكنا لم نشأ ذلك، ولم نجعله لك؛ حتىٰ لا يكون الإيمان بسبب هذا الغنىٰ عند النبي، ولا بسبب هذه النعم التي يتمنَّاها البشر، وقد يؤمنون لأجلها.

ثم يوضح ربنا السبب الحقيقي لإثارتهم هذه الشبه، وكذلك لعدم إيمانهم، وهو في ذات الوقت جريمة أخرىٰ من جرائمهم، إذْ يقول المولىٰ عز وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

أي: أنهم زادوا في عنادهم وكفرهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ﴾ وهي يوم القيامة، وما فيها من حساب، وثواب وعقاب.

وقد ﴿أَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ﴾ منهم أو من غيرهم ﴿بِٱلسَّاعَةِ ۖ﴾ ولم يستعد لها بالإيمان والعمل الصالح ﴿سَعِيرًا﴾ أي: نارًا موقدة مسعرة، شديدة اللهب والحرق.

هذه النار: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

يعني: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ ورأوها ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قبل أن يدخلوها أو يقتربوا منها ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ من شدة لهيبها وغليانها ﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

وأما هم، فيقول عنهم ربنا عز وجل:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟﴾ في مكان ﴿مِّنْهَا﴾ وكان ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ بطبيعة الحال، وكانوا هم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مقيدين في الأصفاد وهي الأغلال ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾ في هذه اللحظة ﴿ثُبُورًا﴾ أي: قالوا يا هلاكنا. **فيقال لهم:**

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

أي: ليس هلاكًا واحدًا، بل هو هلاك وهلاك، وويل ودمار كثير.

يا أيها الناصح الأمين:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَذَٰلِكَ﴾ المذكور من صفة النار ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ﴿أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بها من ربهم..؟

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ على إيمانهم وتقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ حسنًا يستقرون فيه.

وليس هذا فقط، بل ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فيها ﴿كَانَ﴾ ذلك ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ منه سبحانه ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ أي: مطلوبًا.

وقد سأله المؤمنون والملائكة من ربهم في دعواتهم.

وأما المعاندون الكافرون، فيقول عنهم العزيز الحكيم:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة يبعثهم و ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ ويحشر معهم كذلك ﴿مَا﴾ كانوا ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من آلهة ﴿فَيَقُولُ﴾ الرب سبحانه لهذه الآلهة ﴿ءَأَنتُمْ﴾ الذين ﴿أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين كانوا يعبدونكم في الدنيا ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا﴾ بأنفسهم عن السَّبِيلِ، أي: الصواب.

فيكون جواب الذين عُبدوا من دون الله هكذا:

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾

أي: تعجبوا من هذا السؤال و﴿قَالُوا۟﴾ لربنا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أنت منزَّه عن الشريك والند، فكيف يعبد غيرك..؟

يا ربنا: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ ولا يصح منا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ وما فعلنا ذلك.

﴿وَلَٰكِن﴾ هؤلاء الضالين ﴿مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالأموال والأولاد وطول العمر، والسلامة من العذاب، فشغلوا بالنعمة ونسوا المنعم ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ لك، والإيمان بك، فكفروا ﴿وَكَانُوا۟﴾ بسبب ذلك ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هلكىٰ، لا نجاة لهم.

وفي الآية تنبيه علىٰ أن كثرة النعم دون شكر عليها قد تكون طريقًا إلىٰ الكفر والعياذ بالله!!

هذا، وحين يقول الذين عبدوا من دون الله ذلك، يقول ربنا لمن كانوا يعبدونهم في الدنيا:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ أي: هؤلاء الذين كنتم تعبدونهم علىٰ أنهم آلهتكم، أو علىٰ أنهم يقربونكم إلىٰ الله زلفىٰ، وتبرؤا منكم.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ لقولهم ﴿صَرْفًا﴾ أي: ردًّا ﴿وَلَا﴾ لأنفسكم من عذاب الله ﴿نَصْرًا﴾ وخلاصًا.

ثم يقول ربنا لأهل الدنيا كلها إلىٰ يوم القيامة: ما فعله الكافرون ظلم ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ كما ظلموا ﴿نُذِقْهُ﴾ في جهنم ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: نخلده فيها.

وبعد ذلك تعود الآيات إلىٰ ردِّ شبهات الكافرين التي أنكروا فيها نبوة محمد ﷺ، فتقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

يعني: قالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق..؟

فما الذي يعيبك في ذلك..؟

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ من رسول ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلىٰ أمة من الأمم ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ﴾ كانوا علىٰ هذه الصفة ﴿لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ لحاجتهم إلىٰ التغذية به، شأن البشرية جميعًا ﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ للتكسب والتجارة وقضاء المصالح؛ شأن البشر جميعًا، وما نقص ذلك من قدرهم شيئًا، ولا قلل من صفاتهم الحسنة، وأقوالهم الفاضلة، وأفعالهم الكاملة، وأنت كذلك مثلهم..!! فلماذا يعيبون عليك ذلك..؟

وعلىٰ كل حال، فقد ﴿جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ وابتلاءً وامتحانًا؛ حيث جعلهم يقولون ما يقولون من مثل قولهم: محمد بشر مثلنا، فلمَ خُصَّ بالرسالة من دوننا..؟

وقولهم علىٰ الدعاة إلىٰ الله: هم مثلنا، فلمَ يقومون بالدعوة لنا، هل يريدون الفضل علينا، أو انتزاع الخير منا؟

يقول ربنا في سؤال مُثبِّت: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علىٰ أذاهم لكم بالفعل والقول..؟ ولمَ لا، وأنتم علىٰ الحق؟ إذن فاصبروا.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بهم وبكم، فيجازي كل واحد منكم بما يستحق، فاطمئنوا واصبروا واثبتوا.

ثم يعرض الله عز وجل علينا شبهة جديدة لمنكري نبوة محمد ﷺ، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾

يعني: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾ كفروا بالله، وأنكروا البعث، وهم الذين قالوا عن القرآن إنه كذب، وقالوا على النبي ﷺ ما قالوا، وهم ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يخافون ﴿لِقَآءَنَا﴾ وما يحدث لهم ساعته، ماذا قالوا..؟ قالوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: أنزلت علينا الملائكة تشهد على صدق محمد ونبوته ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ فيخبرنا بصدق محمد في دعواه النبوة..!! ويكون الرد الإلهي عليهم ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ واغتروا، وطلبوا هذا الطلب كبرًا وغرروًا وعنادًا ﴿وَعَتَوْ﴾ وظلموا كذلك ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: ظلمًا فظيعًا شنيعًا بطلبهم هذا.

ثم يقول ربنا، إنهم:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

أي: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما طلبوا.. يكون الأمر قد انتهى؛ حيث إنهم لا يرونها إلَّا عند الموت، أو يوم البعث، وساعتها تقول لهم الملائكة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ بل البشرى للمؤمنين، وأنتم عاندتم وكفرتم فلا بشرى لكم.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لهم أيضًا ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عليكم البشرى؛ فهي ليست لكم.

وليس هذا فقط، بل يقول الله تعالى:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

يعني: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ وقصدنا ﴿إِلَىٰ﴾ كل ﴿مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ كانوا يحسبون أنهم يحسنون فيه وبه صنعًا، وينتظرون منه الخير ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً﴾ كالغبار الدقيق جدًّا ﴿مَّنثُورًا﴾ في الهواء، يعني لا قيمة له، ولا وزن، ولا ثواب عليه.

وبعد أن بيَّن الله حال هؤلاء الكافرين بيَّن حال أهل الإيمان، بقوله تبارك وتعالى:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

أي: أن ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم المؤمنون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في يوم القيامة يكونون علىٰ أحسن حال، فهم ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾أي: مقرهم وسكنهم وإقامتهم، هي الخير كله.

وهم ﴿أَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: راحتهم، وتفكههم، هو الحسن كله.

ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتذكَّر مشهدين من مشاهد يوم القيامة فيهما العزاء والسلوى من عناد الكفار له.

في **المشهد الأول**: يقول سبحانه له:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

يعني: واذكر ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ وتنفرج ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ وهو ظلل النور العظيم، الذي يبهر الأبصار ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع هذا الغمام ﴿تَنزِيلًا﴾ يحيطون بالخلائق في مقام الحشر، يوم القيامة.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ﴿لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ فلا ملك لغيره.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديدًا عليهم، سهلًا يسيرًا علىٰ المؤمنين.

وفي **المشهد الثاني**: يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

يعني: واذكر أيضًا ﴿يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ الذي كفر بالله وعاند الرسول ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندمًا لموقفه في الدنيا، وهو يقول ساعتئذٍ ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ في الدنيا ﴿سَبِيلًا﴾ لصحبته، والإيمان به ومتابعة ما جاء به؛ لأدخل الجنة الآن..!!

كما يقول متحسرًا ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ﴾ بدلًا منه ﴿فُلَانًا﴾ الكافر العاصي لربه المعاند لرسوله ﴿خَلِيلًا﴾ صديقًا في الدنيا ورفيقًا.

نعم: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي﴾ هذا الصديق ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ﴾ من الله، ووصل إلي.

إن هذا لمن عمل الشيطان، الذي كنت أطيعه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ وقد أصابني الخذلان والخسران.

هذا، ولمَّا أكثر الكفار من الاعتراضات الفاسدة، ووجوه التعنت الكثيرة، ضاق صدر النبي ﷺ، واشتكىٰ إلىٰ ربه عز وجل:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ شاكيًا لربه ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ وجعلوه ﴿مَهْجُورًا﴾ متروكًا.

حيث أهملوا تلاوته، والاعتناء به، والخشوع له، والعمل بأحكامه.

ويلاحظ: أن سبب هذه الشكوى، موجود بيننا، وليس إهمالًا فقط، بل معاداة له، وحربًا لأحكامه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

ولمَّا اشتكى النبي لربه!! قال له: لست وحدك، وأسوتك إخوانك من الأنبياء الذين أوذوا وصبروا فلتصبر.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي يفعلونه معك فعله السابقون من الكافرين مع إخوانك من النبيين، حيث ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ منهم مثل ما يحدث معك ﴿عَدُوًّا مِّنَ﴾ الكافرين ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولا تبتئس من أعمالهم، وصدهم للناس عن الإيمان فإن ربك لهم بالمرصاد، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لمن أراد الهداية ﴿وَنَصِيرًا﴾ لمن آمن بك واتبعك.

ثم يعرض الله عز وجل شبهة أخرىٰ لمنكري نبوة محمد ﷺ، حيث يقول تعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

يعني: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وأنكروا البعث، وهم الذين قالوا عن القرآن إنه

كذب، وهم الذين قالوا علىٰ النبي ﷺ ما قالوا..!! ولكن.. ما الذي قالوه هذه المرة..؟

قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ الذي يدعيه ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ لو كان صادقًا، كما نزلت التوراة جملة واحدة علىٰ موسىٰ، والإنجيل جملة واحدة علىٰ عيسىٰ، ولم ينزل مفرقًا كما يحدث الآن !!؟

والجواب ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أنزلناه مفرقًا لأمرين:

الأول: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وأفئدة المؤمنين معك، من خلال هذه المعايشة المستمرة مع نزوله المفرق المتتابع مع الحوادث والأحوال.

الثاني: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ﴾ عليك وعلىٰ المؤمنين ﴿تَرْتِيلًا﴾ تفهمه ويفهمونه، وتسعد به ويسعدون به أيضًا.

ثم ختم ربنا الحديث عن شبههم هذه بقوله عز وجل:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

يعني: وهكذا.. هؤلاء ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بسؤال عجيب من شبههم السابقة كلها ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ﴾ أي: جئنا لك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في الجواب عليهم، بما يدفع باطلهم، ويكون ﴿أَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ بيانًا وتوضيحًا لما يسألون عنه، ويعترضون عليه.

هؤلاء المعاندون هم: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ سوف ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يوم القيامة مع غيرهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مكانهم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ وهو جهنم، وطريقهم الذي يسيرون فيه ﴿أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا فاحذروهم.

وبعد أن أكد ربنا علىٰ قضية التوحيد، وإثبات النبوة، ورد الشبهات..!!

وبعد أن بيّن أن ﴿لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]..!!، بدأ يذكر قصص بعض الأنبياء، الذين كُذِّبوا من أممهم.

وكأنه يقول لمحمد ﷺ: لست وحدك، فمن قبلك الأنبياء قد كذبوا.

obeikandl.com

وهذه هي **القصة الأولىٰ:**

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة، وأرسلناه إلىٰ فرعون وقومه ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ له.

﴿فَقُلْنَا﴾ لهما ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لدعوتهم إلىٰ الإيمان، وهم فرعون وقومه فذهبا، وبلغاهم، ودعواهم.. فكذبوا.

فماذا كانت النتيجة..؟ يقول العزيز الجبار: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي: أهلكناهم هلاكًا عجيبًا، فليحذر المعاندون المكذبون..!!

والقصة الثانية:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

أي: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ من قبلهم ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: المرسلة إليهم، أيضًا ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطوفان، وجعلنا إغراقهم علىٰ هذا الشكل ﴿لِلنَّاسِ﴾ آية تدل علىٰ قدرتنا علىٰ إهلاك المكذبين.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ فوق ذلك ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في يوم القيامة، نظرًا لتكذيبهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

والقصة الثالثة:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

يعني: وأهلكنا ﴿عَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ لمَّا كذبوا رسلهم.

﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ ووضَّحنا لهم الأدلة، فكذَّبوا.

و ـ لمَّا كذبوا ﴿كُلًّا تَبَّرْنَا﴾ منهم ﴿تَتْبِيرًا﴾ أهلكنا إهلاكًا قاسيًا.

القصة الرابعة:

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ ومروا ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ وهي قرية قوم لوط ﴿ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ﴾ بالحجارة عليهم ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟﴾ أي: هؤلاء الكفار من أهل مكة ﴿يَرَوْنَهَا﴾ في سفرياتهم، ويشاهدونها بأعينهم، فيتفكروا، ويؤمنوا؟ ﴿بَلْ﴾ إنهم ﴿كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ لا يخافون منه؛ لأنهم يؤمنون به.

ثم يبِّين الله عز وجل أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بإنكار نبوة محمد ﷺ فقط: بل كانوا يسخرون منه ويهزؤن به. يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

يعني: و ـ هؤلاء ﴿إِذَا رَأَوْكَ إِن﴾ أي: ما ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

أي: مادة لاستهزائهم ويقولون ﴿أَهَٰذَا﴾ هو ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ إلينا ﴿رَسُولًا﴾..!!؟ ثم يقولون ساخرين:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

أي: إنه أوشك أن ﴿يُضِلُّنَا﴾ ويصرفنا ﴿عَنْ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ بسحره ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ﴾ وتمسكنا بها، لصرفنا عنها، ويرد الله عليهم مهددًا متوعِّدًا مُبْطِلاً كلامهم.. من ثلاثة أوجه:

الأول: هم يقولون ذلك ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ نتيجته ﴿حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الشديد، وسوف يعرفون أيضًا ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هم أو محمد ﷺ؟

الثاني: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

يعني: أنهم اتخذوا أهواءهم آلهة لهم، ومَن كان كذلك لا فائدة منه، ولا رجاء فيه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ يأخذ عنك ويسمع لك، ويقبل منك.

الوجه الثالث: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

يعني: ﴿أَمْ﴾ أنك ﴿تَحْسَبُ﴾ وتظن ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿يَسْمَعُونَ﴾ لك ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ﴾ عنك؟ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ﴾ في عدم انتفاعهم بالقرآن وآياته ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾ من الأنعام ﴿سَبِيلًا﴾.

وبعد أن بيَّن المولىٰ جهلهم وعنادهم، قدَّم للدنيا كلها وأهلها كلهم إلىٰ يوم القيامة بعض الدلائل علىٰ وحدانيته تعالىٰ، وقدرته سبحانه.

حيث يقول في **النوع الأول** من هذه الدلائل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وتنظر ﴿إِلَىٰ﴾ صنع ربك الدال علىٰ قدرته ووحدانيته..!!

انظر ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: بسطه ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ سبحانه ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ دائمًا.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ﴾ بضوئها ﴿عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يعرف به.

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا المد للظل ﴿قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا﴾ بطلوع الشمس ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ هادئًا.

وهذه آية من آيات قدرة الله ووحدانيته.

ويقول تعالىٰ في **النوع الثاني** من هذه الدلائل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ للوجود ﴿لِبَاسًا﴾ يستره، وجعل ﴿ٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ تستريح فيه الأبدان، حيث يقطع مواصلة الأعمال.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ ينتشر فيه الناس، لمعايشهم، وأعمالهم، وأرزاقهم.

وهذه آية من آيات قدرة الله ووحدانيته.

ويقول سبحانه في **النوع الثالث** من هذه الدلائل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بقدرته ﴿بُشْرًۢا﴾ أي: بشارة ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: قدام المطر.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ به ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَآءً طَهُورًا﴾.

وذلك: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أي: بماء هذا المطر ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أرضًا طال عطشها، وقلَّ نباتها، وكذلك ﴿نُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ إنعامًا عليهم، وعطفًا بهم.

هذا، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: ذكرنا نعمة نزول المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناس في القرآن، وفي الكتب السابقة من قبله.

وذلك: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ فيعرفوا نعمة الله، فيؤمنوا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بهذه النعمة، وعدم إيمان بالمنعم بها، وهو الله عز وجل.

ثم يقول ربنا لحبيبه ﷺ في وسط هذه الدلائل:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ لخففنا عنك، وبعثنا ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ يخوفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، ولكن لم نفعل، حيث جعلناك النذير الخاتم، وجمعنا فيك كل صفات الكمال والنجاح.

لذلك: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ ولا تتأثر بأكاذيبهم عليك، وعنادهم لك، ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالقرآن وما فيه ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ عظيمًا عند الله، حيث يتقبله منك، وينفع لك فيه.

ثم يقول القوي القادر في **النوع الرابع** من هذه الدلائل:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ بقدرته، أي: أرسلهما وجعلهما متجاورين ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة.

ومع ذلك: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا﴾ بقدرته ﴿بَرْزَخًا﴾ غير يابس بحيث لا يختلطان، ولا يبغي أحدهما على الآخر ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: سترًا يمنع اختلاطهما، وهذه آية من آيات قدرة الله ووحدانيته.

وفي **النوع الخامس** من دلائل الوحدانية والقدرة يقول الله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: المني ﴿بَشَرًا﴾ أي: إنسانًا.

﴿فَجَعَلَهُ﴾ أي: جعل هذا الإنسان ﴿نَسَبًا﴾ أي: ذكورًا ينسب إليهم ﴿وَصِهْرًا﴾ يعني: إناثًا يصاهَرون، والأصهار أهل بيت المرأة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: قادرًا، حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر، هما: الذكر والأنثىٰ، وهذه آية من آيات قدرة الله ووحدانيته.

هذا، وبعد أن قدم ربنا هذه الدلائل والآيات المؤدية إلىٰ الإذعان، والاعتراف، بتوحيده عز وجل وقدرته؛ عاد سبحانه إلىٰ تقبيح تصرف الكافرين، وبيان سوء فعلهم فقال الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

أي: ومع وضوح هذه الدلائل وكثرتها، فهم ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الآلهة ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ شيئًا إن عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ بشيء إن تركوه، وهي الأصنام.

وبهذا، ﴿كَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ مطيعًا للشيطان، و ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ له ﴿ظَهِيرًا﴾ أي: معينًا.

يا محمد لا تبال بهم، ولا تحزن لعدم إيمانهم، ولا عليك منهم..

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾

يعني: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بآياتنا ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعصاة الكافرين بالنار، وقد بلَّغت الرسالة، وأديت الأمانة، فلا تقصير منك، بل منهم، ولا عيب عليك، بل عليهم.

وبما أنه ﷺ مبشر ومنذر فقط، فإن الله تبارك وتعالى يوجه إليه هذه الأوامر:

الأمر الأول:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني علىٰ تبليغي لكم رسالة الله، وحبي لإنقاذكم من النار، أي شيء ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ آخذه منكم.

﴿إِلَّا﴾ أنه ﴿مَن﴾ آمن منكم، و ﴿شَآءَ﴾ أن يتخذ ﴿إِلَىٰ﴾ مرضاة ﴿رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ عن طريق الإيمان، والطاعة، والإنفاق في سبيل الله؛ فذلك أجري، حيث إن الله يأجرني أيضًا عليه.

الأمر الثاني:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

وفي الآية: أمر من الله تعالىٰ للنبي ﷺ، وهو بالتالي أمر لكل مسلم أن يتوكل علىٰ الله أي: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى﴾ الله في كل أمورك، وقد وصف الله نفسه بهذه الأوصاف: أنه ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ ولذلك مَن توكل عليه لا يضيع، بخلاف مَن توكل علىٰ مَن يموتون. وهذا هو **الوصف الأول.**

ولذلك: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾ أي نزهه عن صفات النقصان، بصفات الكمال طلبًا لمزيد الإنعام.

الوصف الثاني: أنه العالم بكل شيء ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ سبحانه ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ من الكفر وغيرها ﴿خَبِيرًا﴾ عالمًا بها، مجازيًا عليها.

الوصف الثالث: أنه القادر علىٰ كل شيء، فهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى﴾ مدة مقدارها ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾.

هذا هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أُمِرَ محمد ﷺ بالتوكل عليه، ولتزداد معرفة به وقربًا منه ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ واستعلم عنه مَن هو به ﴿خَبِيرًا﴾ وهو محمد ﷺ، واتبعه فيما يخبرك به ويطلبه منك.

هؤلاء الكافرون: ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ اخضعوا واعبدوا، و ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ : استكبروا، وعاندوا ثم ﴿قَالُوا۟﴾ استهزاءً، وعتوًّا، وطغيانًا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هذا؟

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أنت يا محمد بالسجود له؟

﴿وَزَادَهُمْ﴾ طلب السجود ﴿نُفُورًا﴾ منك ومن الإيمان، وبعدًا عنك وعن الإيمان.

إنهم ما عرفوا الله الذي أمروا بالسجود له حق المعرفة، وما قدروه حق قدره، وإلَّا لخضعوا له سبحانه:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعاظم الله، الواحد، القادر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ بقدرته ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: أماكن ومسارات للكواكب والنجوم، والذي ﴿جَعَلَ فِيهَا﴾ أي: السماء ﴿سِرَٰجًا﴾ وهي الشمس، مضيئة ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ بضوء الشمس حال اختفائها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ بقدرته ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل واحد منهما صاحبه، إذا ذهب واحد جاء الآخر.

وهذه آيات ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ نعم الله، فيعتبر، فيؤمن ويهتدي ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ لله علىٰ هذه النعم.

وبعد أن حدثتنا السورة عن الكافرين ومواقفهم ومجادلاتهم وعنادهم للنبي ﷺ، تعرض لنا لونًا آخر من ﴿عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] وهم الصالحون الذين يعملون علىٰ مرضاة ربهم، ليلًا ونهارًا؛ جعلنا الله وإياكم منهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وقد وصفهم ربنا بثلاث عشرة صفة، فلنستمع إلىٰ قوله تعالىٰ:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾

يعني: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذين يحبهم الله، ويبشرهم برضوانه هم الموصوفون بهذه الصفات.

الصفة الأولى: أنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: أنهم متواضعون لله، مترفقون مع خلقه، من غير ضعف ولا ذل ولا انكسار.

الصفة الثانية: و ـ أنهم ﴿إِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي: السفهاء بغلظة، أو بما

يكرهون، لم ينفعلوا عليهم، ولم يعاملوهم بالمثل، بل ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: قولاً فيه سلامة من الإثم والأذىٰ.

الصفة الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾

وأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾ الليل في طاعة ﴿لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾.

الصفة الرابعة:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

وأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في دعائهم ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ﴾ وأبعد ﴿عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ﴾ ونجنا منه. حيث ﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾ لمن تعذبه فيها ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ أي: شرًا لازمًا له.

يا رب: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ﴾ وبئست ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ لعصاة المؤمنين ﴿وَمُقَامًا﴾ للكافرين، فلا تجعلها مستقرًا لنا ولا مقامًا.

الصفة الخامسة:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

وأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ أي: لا إسراف منهم، ولا بخل فيهم.

﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسطًا، لا إسراف فيه ولا تقتير ﴿قَوَامًا﴾ أي: عدلًا، ويقولون خير الأمور الوسط.

ويقول الله تعالىٰ عنهم:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

وفي هاتين الآيتين **الصفة السادسة** وهي: أنهم ﴿الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ لا يعبدون ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا يشركون بالله شيئًا، وكأنه تعالىٰ يقول للكافرين: وأنتم تشركون.

الصفة السابعة: أنهم الذين ﴿لَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كقصاص، أو رجم، أو لردة، أو لسعي في الأرض بالفساد، أي: وأنتم تقتلون.

الصفة الثامنة: أنهم الذين ﴿لَا يَزْنُونَ ۚ﴾ أي: وأنتم أيها الكافرون تزنون.

ثم يقول ربنا للذين يرتكبون هذه الجرائم الثلاث، أو واحدة منها: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ كله، أو شيئًا منه، ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: نتائج آثامه في الدنيا، عقوبة له من الهموم والغموم، والضيق النفسي.. إلخ.

ثم ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ويكرر عليه ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ أبد الآبدين، ويكون ﴿مُهَانًا﴾ وذليلًا.

ويستثني ربنا بكرمه وعفوه من هذا العذاب، ومن مضاعفته ومن الخلود في النار، والإهانة فيها: مَن تاب، فيقول عز وجل:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

يعني: يعذب الله مَن أشرك، أو قتل، أو زنىٰ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عن ذلك، وندم ورجع إلىٰ الله ﴿وَءَامَنَ﴾ به واتبع نبيه ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يرضي الله، ويصلح البلاد، ويسعد العباد.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعفو الله عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، بل ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لذنوب عباده ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم يبدلها حسنات.

وهكذا ﴿مَن تَابَ﴾ عن ذنوبه، ورجع إلىٰ الله بالطاعة، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يحقق به توبته. ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ﴾ بذلك ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ مقبولًا منه، مرضيًّا به عنه.

ثم تعود الآيات إلىٰ كمال بيان صفات عباد الرحمن، فيقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

الصفة التاسعة: أنهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ وهو الكذب، أي: لا يحضرون مجالس الكذب، أو لا يقومون بأداء شهادة الزور.

الصفة العاشرة: وأنهم الذين ﴿إِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ﴾ من الكلام الفاحش وأهله، ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ معرضين عنهم، مكرمين لأنفسهم بالبعد عنه.

الصفة الحادية عشر:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

يعني: وأنهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ في الكون، وفي القرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل خروا عليها أي: علىٰ الاهتداء بها، وهم سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، وليسوا كغيرهم الذين لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، ولا ينتفعون.

ثم يقول المولى عز وجل عنهم:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

وفي هذه الآية نجد **الصفة الثانية عشر** وهي: أنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لربهم في دعائهم ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ أفرادًا صالحين، يكونون لنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ في الدين، وطاعة الله، وفي الآخرة، بدخولهم معنا الجنة بإذن الله.

الصفة الثالثة عشر وهي: أنهم الذين يدعون ربهم، ويقولون في دعائهم: ربنا

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: بلغنا في طاعتك الحد الذي نكون فيه قدوة للمتقين من عبادك.

وفي النهاية، يقول ربنا عن عباد الرحمن هؤلاء:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

يعني: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الجميلة، والذين هم عباد الرحمن يكون جزاؤهم على الوجه التالي:

أولًا: جزاؤهم الجنة ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ وهي أعلى ما في الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على الطاعة، وعن المعصية، وعلى البلاء.

ثانيًا: لا يسمعون فيها إلَّا سلامًا ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ من الله، ومن الملائكة، ومن أهل الجنة أيضًا.

ثالثًا: لهم الخلود فيها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

وأنعم به من ثواب، اللهم اجعلنا من أهله يا رب العالمين.

يا محمد، أنذر الكافرين في هذه السورة إنذارًا أخيرًا..

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكافرين ﴿مَا يَعْبَؤُا۟﴾ ما يبالي، وما يكترث ﴿بِكُمْ رَبِّى﴾ لو لم تعبدوه؛ لأن عبادتكم لا تنفعه، وعدم عبادتكم لا يضره، هذا و ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ﴾ إياه في الشدائد ما كشفها عنكم، ومع أنه سبحانه يكشفها عنكم لدعائكم إياه، فلم تستفيدوا بذلك ولم تطيعوه، ولم تؤمنوا به.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بالقرآن، وعاندتم الرسول ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب بسبب ذلك ﴿لِزَامًا﴾ أي: ملازمًا لكم في الدنيا وفي الآخرة.

* * *